الفصل الثانى

مؤامرات فى قصور الخلفاء

تقـــديم :

أمدنا الفصل السابق بمادة غزيرة عن العناء الذى مُنىَ به العباسيون قبيل إقامة دولتهم ، وبعد أن أقاموها ، وعن القلق الذى ظل يساور نفوسهم خليفة بعد خليفة ، من أجل المحافظة على كيان هذه الدولة ، التى كانت تتوالى عليها الهزات والمحن ، وتقوم فى وجه خلفائها المشكلات والمتاعب بين حين وحين ، ففى الشام يوجد الأمويين أنصار وأشياع ، حتى فكر عبدالرحمن الداخل فى إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين (١) ؛ وكانت ثورات العلويين تنتشر فى كل مكان ، وفى كل عهد ، ينجح بعضها فيقطع من جسم الدولة دولةً تظل شوكة فى ظهر العباسيين ، ويخفق بعض بعد أن يرهق الخلفاء ويُقِضّ مضاجعهم ؛ وبين هذا وذاك يهب الخوارج والزنادقة لتقويض بنيان الامبراطورية وتحطيم مثلها ؛ ويقف البيزنطيون بالمرصاد على حدود العباسيين ليتهزوا فرصة اضطراب داخلى ليزحفوا على الدولة ويكثروا فيها القتل والأسر والتنكيل . هذا وغيره مما مر ذكره جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة بالفناء والزوال ، وأنه ينبغى أن يقتلوا كل من حامت حوله شبهة ، أو من خيف منه المروق ، وأصبحت المسألة دفاعا عن النفس ، فقد أحس الخلفاء العباسيون أنهم سيكونون وقودا لكل انقلاب يتم ، أو مؤامرة تنتصر ؛ وإذاً فليستعمل العباسيون كل سلاح يضمن لهم السلامة ، ويكفل لهم النصر ، وكان من أبتر الأسلحة التى انتفعوا

---

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ٢ : ١٨٥ ، وانظر كذلك ابن الأثير ٦ : ٦٣ عند كلامه عن سبب انتقال الرشيد من بغداد إلى الرقة

بها سلاح الائتمار والفتك بكل من يخشونه ، ولو كان ممن أمّنوا وعاهدوا ، وقد برعوا فى استغلال هذا السلاح ليتقوا به شر من يخشى تمرّدُه ، أو ليثأروا به من عدو قديم .

وفيما يلى سجل لأبرز مؤامرات هذا العصر :

أبو سلمة الخلال :

هو حفص بن سليمان ، وسمى الخلاّل نسبة إلى خِلال السيوف وهى أغمادها ، فقد كان يعملها . وكانت العرب تسمى من يعملها الخلال [1] ، وقيل إنه سمى الخلال نسبة إلى الخلّ فقد كانت له حوانيت يعمل فيها الخل [2] .

ولأبى سلمة ولصهره بكر بن ماهان من قبله نصيب كبير فى إقامة الدولة العباسية ، فلقد كان أبو سلمة عالماً بالسياسة والتدبير ، ذا غنى ويسار ، حسن التصرف فيما يعترض الدعوة من مشكلات ، كما كان ينفق ماله بسخاء من أجل الدعوة وعلى رجالها ، وكان مركزه الكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان ، كما سبق القول ، ولكنه كان ينتقل كثيراً إلى خراسان للإشراف على تقدم الدعوة ونجاحها ، ومن هنا يجب أن نعترف بفضل هذا الرجل فى الوصول بالدعوة الجديدة إلى هذا النجاح العظيم .

ولما زحفت جيوش الخراسانيين من نصر إلى نصر ، ووصلت الكوفة ، أظهرَ قوادُها أبا سلمة ، وسلموا إليه الرئاسة ، وسموه وزير آل محمد ، فدبر الأمور ، وأظهر الإمامة الهاشمية ، ولم يُسَمِّ الخليفة [3] .

وبينما كانت الامبراطورية الإسلامية ترتعد تحت الخليفة الأموى

---

(١) الجهشيارى ص ٨٤

(٢) الفخرى ص ١٣١

(٣) الجهشيارى ص ٨٤

الأخير ، كان هذا لا يعرف اليد الكامنة التى تحرك هذه العاصفة ، إلى أن عثر على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم . . فعرف أن إبراهيم هو غريمه فقبض عليه ، وأحس إبراهيم بنهايته تقترب فأوصى بالأمر لأخيه السفاح وأمر أهله بمغادرة الحميمة إلى الكوفة ، فلما ورد هؤلاء الكوفة ، أنزلهم أبو سلمة فى دار الوليد بن سعد الجمال مولى بنى هاشم ، وتولى خدمتهم بنفسه ، وكتم أمرهم (١) .

ثم إن وزير آل محمد فكر فيمن يُسْنِد له الخلافة بعد أن علم بموت إبراهيم . فهداه تفكيره - على ما يقال - إلى ثلاثة من أعيان العلويين هم جعفر الصادق ، وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على ، وعمر الأشرف بن زين العابدين ، فأرسل إليهم الكتب مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصد أولا جعفر الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجب فالْقَ عبد الله المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالق عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق أولا ودفع إليه كتاب أبى سلمة ، فقال : مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى ؟ فقال له الرسول : إقرأ الكتاب . فقال الصادق لخادمه : أدْنِ السراج منى ، فأدناه . فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول ألا تجيبه ؟ فقال : قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبّله ، وركب فى الحال إلى الصادق وقال : هذا كتاب أبى سلمه يدعونى فيه إلى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان . فقال له الصادق : ومتى صار أهل خراسان شيعتك ؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟

(١) الجهشيارى ص ٨٥ والفخرى ص ١٢٤ .

هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : هذا الكلام منك لشيء . فقال الصادق : قد علم الله انى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تُمَنِّ نفسك بالأباطيل ، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء . وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك . فانصرف عبد الله من عنده وقد عدل عن الاستجابة لدعوة أبى سلمة . وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتابَ وقال أنا لا أعرف صاحبه ، فأجيبه [1] .

كان هذا يجرى والسفاح وذووه يقيمون بالكوفة دون أن يعرف أحد من خبرهم شيئاً سوى أبى سلمه وخاصة خـــدمه ؛ وكانت جيوش الخراسانيين تعسكر فى ذلك الوقت بظاهر الكوفة بحمام أعْيَن [2] ، واستمر الحال على ذلك نحوا من أربعين يوما ، فسأل الخراسانيون أبا سلمة عن الإمام فأجاب : لا تعجلوا ، ليس هذا وقت خروجه لأن واسطا لم تفتح بعد [3] . فَهُمْ فى ذلك معه ، إذ خرج محمد بن ابراهيم الحميدى ، ويكنى : أبا حميد السمرقندى ، يريد الكِنَاسَة فلقى سابقا الخُوارَزْمى ، وهو غلام كانوا أهدوه لابراهيم الامام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبره أن إبراهيم الإمام قد قتله مروان ، وأنه أوصى قبل مقتله إلى أخيه أبى العباس واستخلفه من بعده ، وأنه قدم الكوفه ومعه عامة أهل بيته ، فسار معه أبو حميد حتى دخل على القوم فعزّاهم فى إبراهيم الإمام وسأل عن ابن الحارثية ، فأشاروا إلى أبى العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبّل يده

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٨٦ . والفخرى ص ١٣٢

(٢) مكان بالكوفة منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

(٣) ابن الأثير ٥ : ١٥٣

ورجله وبايعه ، وخرج فأعلم جماعة من القواد المرابطين بظاهر الكوفة بحمام أعين ، فاستقر رأيهم على المضى إلى أبى العباس ومبايعته ، فخرجوا إليه ، فلما عرف أبو سلمة هذا ركب فى أصحابه إلى أبى العباس ، فأغلق الباب دونه فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد . فأسمعوه من الداخل بعض ما يكره ثم أدخلوه ، فاستقبل القبلة ، فسلم ثم سجد ، وقبّل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار ، فقال أبو العباس : عذرناك ياأباسلمة ، غير مُفنَّد ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك فى دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل ، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين (١) .

ولكن الحقيقة أن أبا العباس قال هذا وهو يضمر غيره ، فلم تكن سابقة أبى سلمة مشكورة عنده ، ولازلته مغفورة لديه ، ولكن أبا العباس كان لايزال فى حاجة إلى تأييد أبى سلمة ومناصرته ومن هنا قال هذا القول وهو يخفى سواه .

خرج أبو العباس بعد هذا إلى المسجد ، وخطب الناس وأخذ بيعتهم ، ووزع أهله وذويه على الجيوش المحاربة فى الميادين المختلفة ، كما ولى أخصاءه الإمارة على البلاد التى دانت لهم . ثم التفت بعد ذلك إلى أبى سلمة ليأتمر به انتقاماً منه لما اقترف ، ناسياً يده الطولى ، وجهده الكبير فى تكوين هذه الدولة .

ولكن أبا العباس حينما همّ بأبى سلمة قال له داود بن على : لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ؛ ولكن اكتب إليه فعرفه ماكان

---

(١) الطبرى ٩ : ١٢٥ ، والجهشيارى ٨٦ — ٨٧ ، وابن الأثير ٥ : ١٥٣

من أبي سلمة . فكتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ، ويقول له : إنني قد وهبت جرمه لك ؛ ولكن باطن الكتاب كان يفيد حث أبي مسلم على قتل أبي سلمة . فلما قرأ أبو مسلم الكتاب ، فطن لغرض السفاح ، فوجه بالمرّار بن أنس الضبي ومعه قوم من أهل خراسان لقتل أبي سلمة ؛ فلما وافى المرار ومن معه ، أمر السفاحُ منادياً ينادي بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة ؛ ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد فخلع عليه ، ثم دعاه في الليلة التالية فسهر معه عامة ليله ، ثم انصرف إلى منزله ، فاعترضه المرّار بن أنس وأصحابه فقتلوه ، وأغلقت أبواب المدينة ، وقيل لأبي العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج . فقال : لليدين وللفم [1] .

وكان مقتل أبي سلمة في رجب سنة ١٣٢ هـ [2] .

بقيت لي كلمة عن ذلك الموضوع ننصف بها بالقول ذلك الرجل الذي غُدر به ، والذي شاء له الخليفة أن يَنْكَبَّ على وجهه فلا يفيق ، وأنا لا أقصد بهذه الكلمة الدفاع عن أبي سلمة ، ولكنه عرض هادىء أعتقد أنه عادل مستقيم .

من الواضح أنه لم يثبت بشكل قاطع أن أبا سلمة كتب للعلويين

---

(١) دعاء بالسوء . ومعناه كبه الله حتى يسقط على يديه وفمه .

(٢) انظر لذلك الموضوع : الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٩٠
ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٦٣ — ١٦٤
ابن خلكان : الوفيات ١ : ١٦٣ ، ابن خلدون : العبر ٣ : ١٧٦
ابن طباطبا : الفخري ص ١٣٣

يستدعيهم ليسند إليهم الخلافة، وقد جاء فى رواية ابن خلكان [1] ما يوحى بالتشكيك فى هذه القضية فقد قال : « إن القوم توهموا من أبى سلمة أنه مال إلى العلويين » .

وشىء آخر ، ألا يُحتمل أن يكون أبو سلمة وقع فى هذا لأنه كان قد خدع فى فهم دعوة الحيمة ، التى كانت تسير باسم الرضا من آل محمد ، كما كان زعماء الحيمة أنفسهم يعلنون ذلك ؟ فلما نجحت الدعوة وجد أبو سلمة - وهو وزير آل محمد - أن من واجبه أن يعين الخليفة ، وهداه تفكيره إلى أن العلويين أولى بهذه الدعوة من سواهم ؛ إذ قامت الدعوة الجديدة باسمهم واستغلت رفاتهم وضحاياهم ، ثم هم أكثر شهرة بين الناس ، وتعرفهم الجماهير أكثر مما يعرفون بنى العباس .

وإذا كان أبو سلمة قد أخطأ فى هذا التصرف أما كان يشفع له جهاده الطويل وكفاحه المرير وثروته العريضة التى أنفقها من أجل الدعوة ونجاحها ؟ وبخاصة أنه لم يُخش منه تحول بعد ذلك ؟ ولا خيف منه رجوع إلى العلويين بدليل ماروّاه ابن خلكان [2] من أنه كان صفىَّ أبى العباس وكان هذا يأنس به .

وإذا كان أبو العباس ينوى قتله ، فلماذا يوثق على نفسه العهود ، ويخلع عليه ، ويدع منادياً ينادى أن أمير المؤمنين راض عنه ؟ مع أنه لو قتله بدون ذلك ، وادعى أن الخوارج قتلوه كما فعل ، ما تغير فى الوضع شىء ، وبخاصة بعد أن دبر ذلك أبو مسلم الخراسانى .

إن الاستهانة بالعهود كانت كما وضح وكما سيتضح مما يلى ، شيمةً من شيم أكثر خلفاء هذا العصر .

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٦٣

(٢) المرجع السابق

يزيد بن عمر بن هبيرة :

بطل من أبطال العرب ، وعلامة من دعائم الخلافة الأموية ، كان كما يقول ابن قتيبة [1] أحد القواد القلائل الذين جُمع تحت أمرهم العراقان (الكوفة والبصرة) ، وكان يزيد شيخاً جسيما طويلا خطيباً شجاعاً ، ظل يحارب العباسيين حتى بعد أن أعلنوا خلافتهم ، ولم يثنه عن مداومة العداء إلا قتل مروان بن محمد وانتهاء ملك الأمويين ، وهكذا كانت واسط التى تحصن بها ابن هبيرة ، آخر حصن عزّ على العباسيين تسوُّرُه ، وما دخلوه إلا صلحا [2] ولنعد إلى المسألة بشيء من التفصيل :

لما دخل أبو مسلم الخراسانى مدينة مرو حاضرة خراسان سنة ١٣٠ هـ أقام بها ووجه قَحْطَبة بن شبيب الطائى ـ وكان قد وفد عليه حديثاً من قبل ابراهيم الإمام ـ فى جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصر عليهم حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والياً عليه ، فأراد قحطبة أن يعبر الفرات ليواصل الضغط على ابن هبيرة ، ولكن معن بن زائدة الشيبانى أحد الأبطال العرب الذين كانوا فى ذلك الحين مع ابن هبيرة ضرب قحطبة ضربة أوقعته فى الماء فأغرقته ، وحينئذ تولى الحسن بن قحطبة قيادة جيش العباسيين مكان أبيه ، وواصل زحفه على جيش الأمويين حتى لحق ابنُ هبيرة بمدينة واسط ، وتحصن بها تحصناً محكما ، استمر أحد عشر شهراً ، حتى جاءهم خبر مقتل مروان بن محمد ، أتاهم به اسماعيل بن عبد الله القسرىّ وقال لهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ فجنحوا حينئذ إلى الصلح [3].

---

(١) المعارف ص ٢٤٩

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ابن الأثير ٥ : ١٦٤ وما بعدها

(٣) ابن الأثير ٥ : ١٦٥

أما عن جيش العباسيين فإنه بعد مقتل قحطبة وقيام ابنه مكانه ، رأى أبو العباس أن يدعم ذلك الجيش لعله يستطيع أن يقضى على ابن هبيرة ، الذى كان شوكة فى ظهورهم ، فأرسل أخاه المنصور لمعاونة الحسن ، وكتب إلى الحسن يقول : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكنى أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ؛ فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، وكان الحسن هو المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور (١) .

وقد أدرك المنصور قوة ابن هبيرة وأنصاره من أبطال العرب، كما يئس ابن هبيرة من النصر بعد أن قتل مروان ودالت دولة الأمويين ، فجرت بينهما محادثات للصلح ، ونشط السفراء بين الاثنين ، حتى جعل أبو جعفر لابن هبيرة أماناً ، وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ، فأنفذه إلى أبى جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أخيه السفاح ، فأمر بإمضائه . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على أبى جعفر ولى أمر المسلمين ، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم فى مدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين ، ومن معهم من وزرائهم ؛ إنى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد ، ويعلم ما تخفى الصدور ، وإليه الأمر كله ، أماناً صادقاً لايشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن هبيرة ، ومن أمنته فى أعلى كتابى هذا الوفاء بما جعلت

---

(١) المرجع السابق .

لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله[1] وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين ، التى لا يسع العبادَ نقضُها ، ولا تعطيلُ شيء منها ، ولا الاحتقار لها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها ، تعظيما لها ، وبها حقنت الدماء وذمة روح الله وكلمته عيسى بن مريم ، وذمة ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وأعطيتك ماجعلت لك من هذه العهود والمواثيق ، ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة ، بعد استثمارى فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأمر بإنفاذه لكم ، فاطمئنَّ إلى ما جعلتُ لك من الأمان والعهود والمواثيق ، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلَّم منه ورضى به ، وجعلتُه لك ولمن معك على نفسى ، ولك علىّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرَّمه ، وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد (ص) ، فإنه جعله كتابا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونوراً وحُجَّةً على العباد ، حتى ألقى الله وأنا عليه . وأنا أُشهد اللهَ وملائكتَه ورسله ، ومن قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، وإقرارى بها على نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ماسألت ، لايغادَر منها شيء ، ولاينكث عليك فيها . أدخلتُ فى أمانك هذا جميعَ مَن قبلى من رعية أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن لأمير المؤمنين عليه طاعة من اهل الشام والحرب وأهل الذمة وجعلت لك ألاّ ترى منى انقباضاً ، ولامجانبةً ، ولاازوراراً ، ولا شيئاً تكرهه فى دخولك علىّ إلى مفارقتك إياى ، ولا ينال أحداً معك أمرٌ يكرهه ، وأذنت لك ولهم

(١) معطوف على قوله فيما سبق « من عهد الله وميثاقه »

فى المسير والمقام ، وجعلت لهم أمانا صحيحاً ، وعهداً وثيقا ، وأن عبد الله ابن محمد [يعنى نفسه] إن نقض ما جعل لكم فى أمانكم هذا ، فنكث أو غدر بكم ، أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على خلافه أحدا من المخلوقين فى سر أو علانية ، أو أضمر لك فى نفسه غير ماظهر لك ، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين ، التماسَ الخديعة والمكرِ بك ، وإدخالِ المكروه عليك ، أو نوى غير ماجعل لك من الوفاء لك به ، فلا قَبِلَ الله منه صرفا ولا عدلا ، وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حِجَّةً يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذى بمكة حافيا راجلا ، وكل مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حِجَّةً [سنة] بشراء أوهبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أوغير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه فيما وَكَدَ وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راع وكفيل ، وكفى بالله شهيداً »[1] .

ذلك هو كتاب الأمان ، وقد أثبتّه كلّه ليرى القارىء ما فيه من قوة وتوكيد ، وأنه لم يَدَعْ ثُغْرة للغدر وعدم الوفاء ؛ فهل وفّى العباسيون بما عاهدوا الله عليه ؟ سنرى .

لما تم كتاب الأمان خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فى ألف وثلثمائة ، فاستقبله الحاجب وأذن له وحده أن يدخل على المنصور ، وقضى معه ساعة ثم خرج ، وظل يتردد عليه يوما بعد يوم فى خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ،

---

(١) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة ٢ : ١٦٣ — ١٦٦

فقيل لأبي جعفر : إن أبا هبيرة يأتي فيتضعضع له العسكر ، وما نقص من سلطانه شيء ، فأمره أبو جعفر ألا يأتي إلا في حاشيته ، فكان يأتي في ثلاثين ، ثم صار يأتي في ثلاثة أو أربعة [1] . وكلم ابنُ هبيرة المنصورَ أول ما اتصل به فقال : إن دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها ، وجنّبوهم مرارتها ، لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ، ويعذب ذكرُكم على ألسنتهم ، وما زلتُ منتظراً لهذه الدعوة ، فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه . فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه ، فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا . [2]

ولكن دواعي الغدر تكاثرت على أبي جعفر فاستجاب لها ، وتحركت فيه ميوله بعدم الحرص على العهود ، وكان أبو مسلم الخراساني أول وأهم من أشار بقتل أبي هبيرة ، فقد كتب إلى أبي العباس السفاح يقول : « إنه قلّ طريقٌ سهل تُلقَى فيه حجارةٌ إلا ضرّ ذلك بأهله ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، وألح عليه في ذلك ، فكتب المنصور إليه « لا أفعل وله في عنقي بيعة وأيمان » فكتب إليه أبو العباس « والله لتقتلنه أو لأبعثن إليك من يخرجه من عندك ويتولى ذلك عنك » [3] . وإزاء ذلك الإصرار نزل أبو جعفر على رأي السفاح ورأي أبي مسلم ودبّر مؤامرة للقضاء على ابن هبيرة ، الذي كان كل ذنبه أنه لم يَخُنْ خليفته ، ولم يستسلم بسهولة أمام

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٥

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٩٣ طبعة لجنة التأليف ، والمبرد : الكامل ١ : ١٤٤

(٣) الإمامة والسياسة ٢ : ١٦٧ وابن خلكان ٢ : ٣٦٨

جيوش العباسيين الزاحفة ، وقد وصف ابن الأثير [1] وابن خلكان [2] هذه المؤامرة التي حيكت للتخلص من ابن هبيرة وهذا موجز لها :

بعث أبو جعفر مَن ختم بيوت المال في واسط ، ثم بعث إلى وجوه مَنْ مع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم ، فأقبل محمد بن نباتة ، وحوثرة بن سهيل في اثنين وعشرين رجلا ، فخرج حاجب أبي جعفر ، واستدعى ابن نباتة وحوثرة فأُدخِلا حجرةً دون حجرة أبي جعفر ، بها ثلاثة من خواص المنصور ومائة من رجاله ، فلما دخل ابن نباتة وحوثرة نُزِعت سيوفهما وكُتِّفَا ، ثم أدخل بعدهما اثنان وفعل بهما كذلك ، وهكذا إلى أن نزعت سيوف الجميع وكتفوا فقال أحدهم : أعطيتمونا الأمان ثم خنتم . إنا لنرجو أن يدمركم الله ؛ وقال آخر : كأني كنت أنظر إلى هذا ؛ ثم قتل الجميع وأخذت خواتمهم ، ثم أرسل المنصور نحوا من مائة من أشداء رجاله إلى ابن هبيرة بحجة أنهم يريدون نقل خزائن بيت المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فدلَّهم عليها ، ولكنهم بدل أن يأخذوها بدءوا ينظرون هنا وهناك ليطمئنوا أنه ليست هناك قوة تدافع عن ابن هبيرة ، فأنكر ابن هبيرة نظرهم وقال : أقسم بالله إن في وجوه القوم لشرا ، وكان معه ابنه داود ، وكاتبه عمر بن أيوب ، وحاجبه ، وعدَّةٌ من مواليه ، وابن له صغير في حجره ، فأقبل رسل أبي جعفر نحوه ، فقام حاجبه في وجوههم ، فضربه أحدهم ضربة صرعته ، وقاتل ابنه داود فقُتِل ، وقتل الموالي . ونُحِّي ابنُ هبيرة الصغيرَ من حجره ، وخرّ ساجدا ، فقتل وهو ساجد ، ومضوا

---

(١) ٥ : ١٦٦

٢ : ٣

برءوسهم إلى أبي جعفر ؛ وهكذا كانت النهاية الأليمة لهذه الطائفة من صناديد العرب وأبطالها .

عبد الله بن علي :

سبق أن تحدثنا عن عبد الله بن علي وهزيمته أمام أبي مسلم الخراساني في مطالع عهد المنصور بعد حرب ظلت خمسة شهور ، وقلنا إنه هرب في الموقعة الأخيرة ، ولجأ إلى البصرة حيث يقيم أخواه سليمان وعيسى ، فبلغ ذلك المنصور ، فأرسل إلى سليمان وعيسى في إشخاص عبد الله ، فتوسطا له عند المنصور ليرضى عنه ، ولا يؤاخذه بما جرى منه ، فقبل شفاعتهما ، واتفقوا على أن يكتبوا له أمانا من المنصور ، وكان عبدالله بن المقفع يعمل كاتبا لعيسى ابن علي فطلب إليه عيسى وسليمان أن يعمل نسخة للأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتبٌ إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، بحيث لا يتهيأ لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط توكيد ابن المقفع ، واحتياطه ، وفيما يلي فقرات من هذا الكتاب الطويل :

« وإنْ أنا نلت عبدالله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفيٌّ من محمد بن علي بن عبدالله ومولود لغير رَشدة [أي ولد سفاح وزنى] ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءةُ مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي ، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق ، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين ، وأنا

متبرىء من الحول والقوة ، ومُدَّعٍ ، وكافر بجميع الأديان ، ألق ربي على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطي ، ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به (١) .

فوقع المنصور الكتاب وأرسله إلى عمه عيسى قائلا ، إذا وقعت عيني عليه فهذا الأمان له ، لأني لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتي له ، فيسير في البلاد ، ويسعى عليّ بالفساد ، فقدم سليمان وعيسى بعبد الله وقواده ومواليه على المنصور في ذي الحجة سنة ١٢٩ هـ ، فلما قدموا عليه أذن لسليمان وعيسى فدخلا عليه ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الإذن له؛ فشغلهما بالحديث ، وكان قد هيأ لعبد الله مكانا في قصره ، وأمر به أن يصرف إليه بعد دخول سليمان وعيسى فَفُعِل به ذلك ، ثم نهض المنصور وقال لسليمان وعيسى : خذا عبد الله معكما . فلما خرجا لم يجدا عبد الله ، فعلما أنه قد ألقى القبض عليه ، فرجعا إلى المنصور فمُنِعَا عنه ، وأُخذت عند ذلك سيوف من حضر من أصحابه وحبسوا ، ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته ، وبعث الباقين إلى أبي داود خالد بن ابراهيم بخراسان فقتلهم بها (٢) .

أما عبد الله فقد ظل في الحبس حتى سنة ١٤٧ هـ وقد أراد المنصور أن يحج هذا العام بعد تقليده المهدي العهد وتقديمه إياه على عيسى بن موسى ، ولكن المنصور كان يتوق إلى أن يتخلص نهائيا من عمه عبد الله بن علي ،

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٠٣ — ١٠٤

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٨٥

ويود لو استطاع أن يجعل المؤامرة مزدوجة فيتخلص فى الوقت نفسه من ابن أخيه عيسى بن موسى ، وهكذا دبر المنصور المؤامرةَ التى يحكيها لنا الجهشيارى [1] ، وابن الأثير [2] كما يلى .

دفع المنصورُ عمَّه عبد الله بن على إلى عيسى وأمره سراً بقتله ، وقال له : إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدى ، فاضرب عنقه ، وإياك أن تضعف فتنقض علىَّ أمرى الذى دبرتُه ؛ ثم مضى إلى مكة ، وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل فى الأمر الذى أمره به ، فكتب عيسى فى الجواب : قد أنفذتُ ما أمرتَ به ؛ فلم يشك أنه قتله ، وكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا أحد كتابه وأخبره الخبر ، فقال الكاتب : أراد أن تقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمر بقتله سراً ، ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله ، واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك ؛ فلما قدم المنصور ، أوعز إلى أعمامه من يحركهم على الشفاعة فى أخيهم عبد الله ، ففعلوا وشفعوا ، فشفعهم ، وقال لعيسى فى حضرتهم : إنى كنت دفعت إليك عمى وعمك عبد الله ليكون فى منزلك ، وقد كلمنى عمومتك فيه ، وقد صفحت عنه فأتنا به ؛ قال يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرنى بقتله فقتلته ، قال : ما أمرتك ، قال : بلى أمرتنى ، قال : ما أمرتك إلا بحبسه ، وقد كَذَبْتَ . ثم قال المنصور لعمومته : إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم ، قالوا : فادفعه إلينا للقوَد ، فسلمه إليهم ، وخرجوا به إلى الرحبة ، واجتمع الناس ، وشُهِرَ الأمر ، وقام أحدهم ليقتله ، فقال عيسى : أفاعل أنت ، قال : إى والله . قال : ردونى إلى أمير

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٣٠

(٢) الكامل فى التاريخ ٥ : ٢١٥ — ٢١٦

المؤمنين ، فردوه إليه، فقال له : إنما أردتَ أن أقتله لتقتلني ، هذا عمك حيّ سوى ، قال ائتنا به ، فأتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي . ثم انصرف الجمع .

وإذا خفقت هذه المؤامرة، أعمل المنصور فكره لينجح في مؤامرة أخرى، فدفع عبد الله بن علي إلى أبي الأزهر المهلب بن أبي عيسى ، فلم يزل عنده محبوساً ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ، وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبدالله فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبدالله ، قِتلةً غير هذه ، فكان أبو الأزهر يقول : ماجزعت لأحد قتلته غيرها ، ثم وضعها بعد أن خنقها على الفراش بجانب عبدالله ، وأدخلت يده تحت جنبها ، ويدها تحت جنبه كالمعتنقين ، ثم أحضر القاضي ابن علاثم وغيره فنظروا إلى عبدالله والجارية على تلك الحال فاستحقا بذلك الرجم ، فأمر بالبيت فهدم عليهما [1] .

وقيل في قتله : إن المنصور جعله في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات [2] .

وهكذا قضى عبدالله . لم يغن عنه حسبه ولا نسبه ، ولا جهاده لتكوين الدولة ، ولا وقوفه في وجه مروان وأمام جيوش الأمويين ، ولا كتاب الأمان المُحْكَمَ ، ومن العجيب أن هذه السنوات الطويلة بين هزيمة عبدالله سنة ١٣٦ هـ وبين مقتله سنة ١٤٧ هـ كرواية ابن الأثير ، أو سنة ١٤٩ هـ كرواية الطبري ، لم تستطع أن تخفف من حنق المنصور عليه ، أو بغضه له ، ويحق

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٤٤

(٢) ابن الأثير : ٥ : ٢١٦

للإنسان أن يتساءل : ما كان ضرّ المنصور لو عفا عنه بعد أن تقلصت أظفاره ، كما عفا المأمون عن ابراهيم بن المهدى ، والفضل بن الربيع [1] .

أبو مسلم الخراسانى :

يقترن اسم أبى مسلم الخراسانى بالانتصارات التى أحرزها العباسيون ، أو قل : يقترن اسمه بدولة العباسيين ، ومن الحق أن نوضح أنه حين كان بنو العباس يستمتعون بهدوء الخيمة ، وصفاء العيش فيها كان أبو مسلم يحمل العبء كله فى خراسان ، لقد زوده ابراهيم الإمام حين أرسله إلى خراسان ببعض النصائح وبعث له براية النصر ، ولكنه لم يزوده بالمال ، ولم يرسل له فيالق الجنود ، بل ترك الأمر إلى أبى مسلم ، ليجمع حوله الجند ، وتكاليف الكفاح .

وكانت فى أبى مسلم ملامح النجابة ، وقوة العزم ، والنبوغ النادر ، وكل هذا لم يفارقه قط طيلة المدة التى لمع فيها اسمه ، وكان اسم أبى مسلم معروفاً فى العالم الاسلامى بأسره ، فى المدة بين ١٢٨ و١٣٢ هـ حينما كان إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح والمنصور لا يعرفهم إلا خاصة ذويهم فى الخيمة ، وبقى أبو مسلم بعد سنة ١٣٢ هـ الدرع الواقى للدولة الجديدة ، فهو يحبط كل مؤامرة تثور فى وجهها ، وهو يرسل الجيوش والقواد لتحاصر ابن هبيرة ، وتحارب عبد الله بن على ويُلقَى به كلما حزب أمر ، أو هبت عاصفة .

فالفتك بأبى مسلم بعد هذا ، وبدون جريرة تستأهله ، أمر لا يقره الاسلام الحنيف ، ولا تجيزه شرعة الأخلاق إن أجازته شرعة السياسة ؛ ولنعد إلى المسألة بشى من التفصيل :

---

(١) إقرأ عن هذا الموضوع غير المراجع السابقة : الفخرى : ص ١٤٤ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ٣ : ١٨٥

طفولة أبي مسلم قد اختلفت فيها الآراء [1] . ولعل من أوضحها أنه كان مولى لبكر بن ماهان الذى سبق الحديث عنه ، وعن بكر تلقى أبو مسلم أصول التشيع ، ثم اتصل بمحمد بن على سنة ١٢٥ هـ ثم بابنه إبراهيم ، وكانت تظهر عليه مخايل النجابة ، وقوة العزم ، ونبوغ الشباب ، وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشرعوا فى العمل ، فاختاره إبراهيم لتلك المهمة ، وأرسله إلى خراسان وأوصاه [2] .

ونزل أبو مسلم خراسان ليجد نفسه أمام بطل من أبطال العرب ، هو نصر بن سيار ، ومعه الجند والمال ولكن أبا مسلم أعمل الحيلة على النحو الذى سبق إيضاحه ، حتى كتب له النجاح ، ودانت له خراسان ، وزحفت جيوش أبي مسلم تتبع فلول الأمويين ، وتهاجم العراق ؛ حتى كتب لها النصر هنا ، كما كتب لها هناك .

وكان أبو مسلم غيوراً على الدعوة مخلصا لها الإخلاص كله ، حتى لقد دبر قتل أبي سلمة الخلال حينما اتهم هذا بالميل للعلويين ، مع ما بين الاثنين من صلة الصداقة والرحم [3] وحينما اتهم سليمان بن كثير بأنه قال لأحد العلويين : « إذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون » لم يتردد أبو مسلم أن يستدعى سليمان ، ويسأله : أتحفظ قول الإمام لى « ومن اتهمته فاقتله » ؟ فأجاب سليمان : نعم . قال أبو مسلم : فإنى أتهمك . قال سليمان : أنشدك الله ، فأجاب : لا تناشدنى ، فإنك منطوٍ على غش الإمام ؛ وقتله [4] .

---

(١) انظر فى ذلك ابن خلكان ١ : ٢٨٠ — ٢٨١

(٢) الخضرى . محاضرات تاريخ الدولة العباسية ص ٢٨

(٣) كان أبو سلمة صهر بكر بن ماهان ، وكان أبو مسلم مولى بكر

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ٢ : ١٦١

وهكذا كان موقف أبي مسلم من الدعوة ومن العباسيين ، لا يكاد الانسان يجد فيه شيئا من المروق أو التمرد ، وكل ما يمكن استنباطه هو أن أبا مسلم كان مسرورا بالنصر الذى أحرزه ، فبدا منه شيء من الاغتباط أو التيه ، وأن الخلفاء العباسيين كانوا يخشون أن ينقلب عليهم أبو مسلم ، والعباسيون أعرف الناس بقدرته وشجاعته وبراعته ، وبخاصة بعد أن أصبح معه المال والرجال . وكان المنصور أكثر العباسيين حقداً على أبي مسلم ، وكراهيةً له ، أما أسباب هذه الكراهية ، ودواعي ذلك الحقد ، فلا شيء فيما أظن سوى التنافس وخوف المروق . سأل أبو جعفر سَلْم ابن قتيبة : ماترى فى أبي مسلم ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا [1] » قال المنصور : حسبك الله أبا أمية . لقد أودعتها أذنا واعية [2] .

وقد تزعم المنصور - منذ كان وليا للعهد - حركة خفية ترمى إلى الايقاع بأبي مسلم والفتك به [3] . وبخاصة بعد أن زار خراسان ، ورأى بنفسه نفوذ أبي مسلم هناك ، فعاد يقول للسفاح : لستَ بخليفة ما دام أبو مسلم حيا . [4] وفى سنة ١٣٦ هـ استأذن أبو مسلم السفاحَ فى القدوم عليه للحج ،

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٢

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ . ابن خلكان ١ : ٢٨٢

(٣) ويبدو أنه من الأسباب التى دعت المنصور وهو ولى للعهد أن يبغض أبا مسلم ويكيد له ، أن المنصور كان يتوقع أن يحله أبو مسلم ويكبره إبان حياة السفاح ، ولكن أبا مسلم كان يتجه بالإجلال والإكبار إلى الإمام فقط ، ويترفع بنفسه عن أن ينحنى لسواه ، وسترد فى هذا البحث أمثلة تؤيد هذا الاتجاه فى أبى مسلم ونزيد هنا ما رواه ابن عبد ربه (العقد الفريد ١ : ٢٠) أن أبا مسلم دخل على السفاح وعنده المنصور ، فسلم على أبى العباس ، فقال له : يا أبا مسلم ، هذا أبو جعفر : فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين . هذا موضع لا يؤدى فيه إلا حقك .

(٤) البداية والنهاية ١٠ : ٥٤

وكان منذ ولى خراسان لم يفارقها ، فأذن له فى القدوم مع خمسمائة من الجند ، فكتب إليه أبو مسلم : إنى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى ؛ فكتب إليه أن : أقبل فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يحتمل العسكر ، وأمر السفاحُ القوادَ وسائر الناس أن يتلقوه ، فجاء أبو مسلم ودخل على السفاح فأكرمه وعظمه (١) .

وقد انتهز المنصور فرصة بُعد أبى مسلم عن خراسان ووجوده فى عاصمة الخلافة فى جند قليلين ، فقال للسفاح : يا أمير المؤمنين ، أطعنى ، واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة ، وحاول السفاح أن يثنى أخاه عن ذلك قائلا له : يا أخى قد عرفتَ بلاءه وما كان منه ، ولكن المنصور أجاب : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنوراً لقام مقامه ، وبلغ ما بلغ فى هذه الدولة ، وخضع السفاح لهذا الضغط المتواصل ، فسأل المنصورَ : كيف تقتله ؟ فأجاب المنصور : إذا دخل عليك وحادثته ، وأقبل عليك . دخلتُ فتغفلتُه ، فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه ؛ فسأل أبو العباس : كيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟ فأجاب المنصور : لو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا ؛ ولكن التردد غلب على السفاح . فقال : عزمت عليك إلا كففت عن هذا .

وثابر المنصور على إصراره ، فهتف : أخاف والله إن لم تتغد به اليوم أن يتعشى بك غدا . فاستسلم أبو العباس وقال : دونكه فأنت أعلم . وبينما يستعد المنصور لهذا الأمر كان أبو العباس يراود نفسه ؛

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧١ ، وابن خلدون ٣ : ١٧٩

فرجع عن موافقة المنصور، وبعث إليه ألا ينفذ الأمر الذى عزم عليه [1]

وإذا كانت هناك بقية من الوفاء فى نفس السفاح حالت دون الفتك بأبى مسلم ، فإن أبا مسلم لم يفلت من ضغط السفاح ، وتضييقه عليه ، ومحاولة الحد من نفوذه وسلطانه ، وقد رأينا كيف أنه حدد لأبى مسلم عدد الجند الذين يقدم فيهم ، ليقلل من جلال موكبه ، وليزيل عظمة ركبه ، وحينما استأذن أبو مسلم السفاح فى القدوم عليه للحج ، وأذن السفاح له ، أدرك الخليفةُ أن من الطبيعى أن يكون أبو مسلم أمير الحج فى ذلك العام ، ولكنه لم يرد أن يمنحه هذا الشرف ، فكتب إلى أخيه المنصور - وكان أميراً على الجزيرة وأرمينية واذربيجان - يقول : « إن أبا مسلم كتب إلىّ يستأذن فى الحج، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه إذا قدم فسيسألنى أن أوليه إقامة الحج للناس ، فاكتب لى تستأذننى فى الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك » فكتب أبو جعفر يستأذن فى الحج ، فأذن له ، فوافى الأنبار .

واجتمع بالأنبار العدوان اللدودان فجرت محاولات أبى جعفر سالفة الذكر ، ولكنها لم تنجح ، وحينما وافى موسم الحج قال أبو العباس لأبى مسلم : لولا أن أبا جعفر حاج لوليتك الموسم ؛ ويهمس أبو مسلم معلقاً على هذا بقوله : أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا ؟ . [2]

ويذهب الفارسان العظيمان للحج ، ويتباريان فى الإعطاء والسخاء ، ويحتفى الحجيج بهذا أو ذاك . فتزيد الهوة بين الاثنين .

وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم فى الحجاز ، ورد الخبر بوفاة السفاح

---

(١) الطبرى : ٩ : ١٥٣ ، الإمامة والسياسة ٢ : ١٧٠ ، ابن الأثير ٥ : ١٧١ .
(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٥

وتولية المنصور الخلافة ، ويقف أبو مسلم من المنصور موقفاً رائعاً كان من الواجب أن يرجح كل ما عُدَّ عليه من هفوات ، وما يمكن أن يكون قد ارتكبه من ذنوب [1] .

يروى ابن الأثير [2] أن المنصور حينما بلغته وفاة السفاح والبيعة له كتب إلى أبي مسلم يستدعيه ، فأقبل أبو مسلم إليه ، فأخبره المنصور الخبر ، فبكى أبو مسلم واسترجع ، ونظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعا شديداً ، فقال له : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ قال أتخوف شرَّ عمى عبد الله وشغبه علىّ ، فأجاب أبو مسلم : لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه من خراسان ، وهم لا يعصونني فسُرِّىَ عن أبي جعفر . وفى رواية أخرى لابن الأثير أيضاً [3] : أن أبا مسلم عرف الخبر قبل المنصور فكتب إليه : عافاك الله ومتع بك ، إنه أتانى أمر قطعنى ، وبلغ منى مبلغاً لم يبلغه منى شىء قط ، وفاةُ أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفى نصيحة وحرصا على ما يسرك منى . ويسوق ابن الأثير أيضاً [4] : وابن طباطبا [5] : رواية تدل على استعداد أبي مسلم للفناء فى خدمة المنصور ، وهاك نصها :

لما عاد أبو مسلم والمنصور من الحج قال أبو مسلم له : إن شئتَ جمعتُ

---

(١) سترد فيما بعد ذنوب أبي مسلم كما يعددها المنصور وهو يحاسبه قبيل الفتك به

(٢) الكامل فى التاريخ ٥ : ١٧٢

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣

(٥) الفخرى ص ١٤٤

نيابتى فى مخلفتى وخدمتك ، وإن شئت أتيتُ خراسان فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرتُ إلى حرب عبد الله ؛ فأمره المنصور بالمسير لحرب عبد الله

ولبى أبو مسلم الأمر وزحف إلى عبد الله كما سبق القول . واستطاع أبو مسلم أن يثبّت العرش الذى شيده ، وأن ينتصر على أعـــداء الخليفة العباسىّ .

وما أن انتهت هذه العاصفة بفضل أبى مسلم حتى أسفر المنصور عن عدائه إليه ، ووجد الفرصة سانحة ؛ فقد مات السفاح الذى كان درعا له ، ثم إن أبا مسلم بعيد عن خراسان عرينه الحصين ، فصمم أبو جعفر ألا يدع أبا مسلم يعود إلى ذلك العرين ، ومرت الأحداث سراعا على النحو التالى :

لما ظفر أبو مسلم بعبد الله بن على ، بعث أبو جعفر إليه مولاه أبا الخصيب ، ليكتب ما أصاب أبو مسلم من الأموال فهمّ أبو مسلم بقتله ، وقال : أمين على الدماء ، خائن فى الأموال ؟ ثم كلّمه أبو مسلم فى أبى الخصيب . وقيل له : إنما هو رسول ، فخلّى سبيله ، فرجع إلى أبى جعفر فأخبره بما كان (١) .

ظهرت حينئذ الوحشة بين الاثنين ، وحرص المنصور على منعه من الرجوع إلى خراسان ، فكتب إليه كتاباً مع يقطين بن موسى يقول فيه : قد وليتك مصر والشام ، فهى خير لك من خراسان ، فوجّه إلى مصر من أحببت ، وأقم بالشام لتكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧٥

من قريب . فلما أتاه هذا الكتاب غضب وقال : يوليني الشام ، وخراسان لي ؟ فكتب الرسول إلى أبي جعفر بذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف ، وخرج يريد خراسان ، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه ، فاستشار أبو مسلم بعض خواصه ، فأشاروا عليه ألا يذهب إلى المنصور بعد ما كان بينهما ، فكتب إليه أبو مسلم : « إنه لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أنَّ أخوف ما يكون الوزراء ، إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ماوفيتَ ، حريُّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضتُ ما أبرمتُ من عهدك ضناً بنفسي »[1] .

وهكذا أسفر العداء ووضح البغض ، وأدرك المنصور أن إفلات أبي مسلم منه ، ووصوله إلى خراسان ، سيكون صدعا للدولة ، وربما كان قضاءً عليها ؛ فأعمل فكره ، واتخذ كل الوسائل ليحول بين أبي مسلم وبين خراسان . والحقيقة أن هذا كان امتحاناً قاسياً مرَّ به أبو جعفر المنصور ، واستطاع بمواهبه أن ينجح فيه ، بعد أن استغل له كل السبل التي كانت بين يديه :

فأولا ــ أرسل إلى أبي مسلم كتابا يردّ به على كتابه السابق وفيه : قد فهمتُ كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فلمَ سوَّيت نفسك

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وابن الأثير ٥ : ١٧٤ — ١٢٥

بهم ؟ وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ، وليس مع الشريطة التي اشترطتها سماع منك ولا طاعة ، وحمّل إليك أميرُ المؤمنين عيسى بنَ موسى رسالةً لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يُفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبّه من الباب الذي فتحه عليك .

وثانياً : طلب المنصور من عمه موسى بن علي ومن حضر من بني هاشم أن يكتبوا إلى أبي مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ، ويسألونه أن يتم ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغي ، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور .

وثالثاً : لما ظهر للمنصور أن الملاينة أصبحت لا تفيد ، وعرف إصرار أبي مسلم على المسير إلى خراسان خوفاً من أبي جعفر ، ونزولا على إشارة ناصحيه وأصفيائه ، أرسل له أبا حميد المروروزي وقال له : كلم أبا مسلم بألين كلام ؛ أمّنه ، وأعلمه أني رافعه ، وصانع به من الخير ما لم يصنعه أحد إن هو صلح ورجع ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لستُ من العباس ، وإني بريء من محمد ، إن مضيتَ مشاقا ولم تأتني ، إن وكلتُ أمرَك إلى أحد سواي ، أو لم اقاتلك بنفسي ، ولو خضتَ البحر لخضتُه ، ولو اقتحمتَ النار لاقتحمتُها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك . فذهب أبو حميد وألقى برسالة اللين واللطف واستعمل فيها أسلوباً رقيقاً عذباً وأفسح لأبي مسلم من الآمال ، ورسم له صورة رائعة للمستقبل ،

ولكن أبا مسلم لم يقبل ، فلما يئس أبو حميد ألقى بالرسالة الأخرى وحذّر ، فاضطربت لها نفس أبي مسلم .

ورابعاً : أرسل أبو جعفر إلى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان كتاباً يوليه هذه البقاع ، ليضمن انحيازه إلى الخلافة وكان في الكتاب : إن لك إمرة خراسان ما بقيت ، وقد سُرّ أبو داود بهذا المنصب الخطير فكتب إلى أبي مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه .

وخامساً : أراد أبو مسلم أن يستوثق من الحالة لدى المنصور ، ومن هوى الهاشميين نحوه ، فأرسل أحد أصفيائه ، واسمه أبو إسحاق ، فلما قدم هذا أحسن بنو هاشم استقباله وأجازه المنصور ، وقال له : اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان ، فرجع أبو إسحاق وخدع أبا مسلم ، وقال له : ما أنكرت منهم شيئاً ، رأيتهم معظّمين لحقك ، يرون لك ما يرونه لأنفسهم وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان [1] .

وهكذا سُدّت كل الطرق في وجه أبي مسلم وجازت عليه الحيلة ، فلم يكن بد من رجوعه إلى المنصور .

وواصل أبو جعفر الحيلة ، وأبو مسلم في الطريق إليه ، خوفا من أن يتردد فيعود إلى التمرد ، فنرى الخليفة يوعز إلى أبي أيوب الموريانى أن يرسل إلى أبي مسلم من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه ماوراء بابه ، ويريح نفسه ، ويتودع ، ويبلغه هذا لا على أنه رسالة ، وإنما على أنه شيء عرفه فسارع من نفسه ليبلغه ، طمعا في أن يكافئه على هذه البشرى

---

(١) الطبري ٩ : ١٦١ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٦ — ١٧٧

عندما تصير له الأمور . [1] وحين اقترب أبو مسلم من الأنبار نجد المنصور يأمر الناس بتلقيه والاحتفاء به ، فيتلقاه بنو هاشم وعيون الناس مرحبين مستبشرين [2] .

ووصل أبو مسلم ، ودخل على المنصور فاستقبله هذا استقبالا حسنا ، وقبّل أبو مسلم يده ، وجالسه ساعة ، ثم أمره المنصور أن ينصرف ليروّح عن نفسه ، ويدخل الحمام ويستريح .

والآن . . وقد تمكن المنصور من أبي مسلم كان من الممكن أن يفتك به بصور شتى . ولكن المنصور سلك طريقاً آخر جعل للفتك بأبي مسلم لونا خاصا فى التاريخ ؛ فقد استدعى المنصور أبا مسلم فى اليوم التالى لوصوله ، وأجرى له محاكمة ، أهملها بعض المؤرخين وذكرها بعضهم ، ولكن أحداً على العموم لم يبرز خطرها ، ولم يبين أهميتها . وتمتاز هذه المحاكمة بشيئين هامين :

أولهما : أن الخصم فيها كان وحده الحكم .

ثانيهما : أن الحكم كان قد حُدِّد قبل بدء المحاكمة ، فإن المنصور كان قد دعا عثمان بن نهيك . وأربعة من الحرس ، منهم شبيب بن رواح ، وحرب بن قيس ، وأجلسهم خلف الرواق ، وأمرهم بالدخول ، وقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه .

وجرت المحاكمة ، وكشف القناع عن تهم أبي مسلم على النحو التالى :

المنصور : أخبرنى عن سيفين لعبد الله بن علىّ أصبتهما .

---

(١) الجهشيارى ص ١١٢ .

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٧ .

المتهم : هذا أحدهما ، وانتضاه أبو مسلم ، وناوله للمنصور فقلّبه وهزه ، ثم وضعه تحت فراشه .

المنصور : كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات ، كأنك أردت أن تعلمنا الدين .

المتهم : ظننتُ أنه لا يحل ، فلما أتانى كتابه اقتديت برأيه .

المنصور : أخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة .

المتهم : كرهت اجتماعنا على الماء . فيضر ذلك بالناس .

المنصور : جارية عبد الله بن على ، أردتَ أن تتخذها لنفسك ؟ .

المتهم : لا ، إنما وكلت بها من يحفظها .

المنصور : فراغمتك ، ومسيرك إلى خراسان ؟

المتهم : خشيت منك ، فقلت آتى خراسان ، وأكتب بعذرى ، فأذهب ما فى نفسك .

المنصور : فالمال الذى جمعته بحرّان ؟

المتهم : أنفقته فى الجند تقوية لكم .

المنصور : ألستَ الكاتب إلى تبدأ بنفسك ؟ وتخطب آسية بنت على ؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ . لقد ارتقيتَ لا أم لك مرتقى صعبا . وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير ، مع أثره فى دعوتنا ؟

المتهم : أراد الخلاف فقتلته .

وضاق أبو مسلم بهذه التهم الصغيرة التى تتضاءل أمام كفاحه من أجل الدولة فقال : كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منى ؟

فأجاب المنصور : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأغنتْ ، إنما

ذلك بدولتنا وريحنا . فأقبل أبو مسلم يقبّل يد الخليفة ويعتذر ، ولكن المنصور ازداد غضبا ، فكبر ذلك على أبي مسلم وصاح :

دع هذا فإني أصبحت لا أخاف إلا الله .

فشتمه المنصور ، وصفق بيديه فخرج الكمين وأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه ولفوه بالبساط وكان ذلك في شعبان سنة ١٣٧هـ وخرج الوزير فصرف الناس وقال : الأمير قائل عند أمير المؤمنين ؛ فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز ، ودخل عيسى بن موسى فسأل عن أبي مسلم . فقال المنصور : كان هنا . فأخذ عيسى يثني على أبي مسلم وبلائه وطاعته فقال المنصور : والله ما أعلم على وجه الأرض عدوا أعدى لكم منه ، هو ذا في البساط ، فاسترجع عيسى ، فأنكر عليه المنصور وقال : وهل كان لكم ملك معه ؟

ومما قاله المنصور والسيوف تعتور أبا مسلم :

زعمت أن الدّين لا ينقضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم

سُقِيتَ كأسا كنت تَسْقِي بها ... أمرّ في الحاق من العلقم [1]

ومما قاله أبو دلامة في ذلك :

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى ... عليك بما خوفتني الأسد الورد

أبا مسلم ما غير الله نعمة ... على عبده حتى يغيرها العبد [2]

وهكذا خفت ذلك الصوت الذي طالما أرعد . وانكبت ذلك الأسد

---

(١) السعود . مروج الذهب ٢ : ٢٣٥ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٧ ـ ١٧٨ ، وابن خلدون . العبر ٣ : ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٢) الأغاني ٩ : ١١٥

المصور الذى طالما أخاف ، ومن العجيب أن يُقتَل أبو مسلم المنتصر الظافر قبل أن يقتل عبدالله بن على المغلوب المنهزم ، ولكنها الدنيا ، لا تسير بمقياس المنطق فى أغلب الأحيان ، ولله فى خلقه شئون .

عبد الله بن المقفع :

يقول الدكتور عبداللطيف حمزة فى كتابه « ابن المقفع » [1] : « إن حياة أبى جعفر المنصور - وبخاصة الجانب الخفى منها - تدل دلالة واضحة على نزعته ، وتوضح للمؤرخين بجلاء كيف أصبحت الخلافة على أيدى العباسيين ملكا يستهان فيه بواجبات الدين والقرابه والأخلاق معاً . ولا ينظر فيه إلا للمطامع المادية والأهواء السياسية ليس غير . . .

والقضاء على ابن المقفع والفتك به شىء له جانب خاص من الخطر ، ذلك لأنه قطع لتيار من الثقافة الرفيعة ، وقضاء على قبس من النور الوهاج ، وقد عبر ابن المقفع عن هذا المعنى فى مقطوعة أدبية رائعة قذف بها فى وجه قاتله فقال : والله إنك لتقتلنى ، فتقتل بقتلى ألف نفس ، ولو قُتل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم أنشد :

إذا ما مات مثلى مات شخص ... يموت بموته خلق كثير

وأنت تموت وحدك ليس يدرى ... بموتك لا الصغير ولا الكبير [2]

ومات ابن المقفع غدراً كما سيأتى بيانه ، ولكن الغدر بهذا الرجل حدثٌ جليل ، لأنه كان مثالا فى الوفاء ، فمن المؤلم أن تكون نهاية هذا

---

(١) ص ٢٣٣

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

الوفى الأمين ، غدراً وخيـــانة . وقد حدثنا الجهشيارى عن وفاء ذلك الرجل فقال :

طُلِبَ عبدُ الحميد بن يحيى كاتبُ مروان بن محمد عقب قتل هذا الخليفة ، وكان عبد الحميد صديقاً لابن المقفع . ففاجأهما الطلب ، وهما معاً . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا . خوفا من أن يُنال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا . فإن فىّ علامات ، فركّبوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات لمن وجّه بكم ، ففُعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد[1]

وكان بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر أبو جعفر على عمارة فى وقت من الأوقات شيئاً ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع إذ ذاك بها . فكان يأتيه فيزوره ،فبينما هو ذات يوم عنده ، وَرَدَ على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لاتصلح إن ملكها غيره ، وأن كلا من الضيعتين تساوى ثلاثين ألف درهم، وإنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال: نحن مع حالنا فى الاضاقة والإملاق الى البيع أحوج ، وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه ، وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف إلى منزله ، ومن هناك أرسل سُفْتَجة[2] إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم . وكتب إليه على لسان عمارة : إنى قد كنت كتبت اليك ببيع ضيعتى ، ثم حضرنى مال،

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٢) السفتجة : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم . كما فى القاموس المحيط ١ : ١٩٤

وقد أنفذت إليك سُفْتَجة ، فابتع الضيعة المجاورة ، ولا تبع ضيعتى ، وأقم بمكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياع إلىّ ، فورد الكتاب على الوكيل فنفّذ ما فيه ، وكتب إلى عمارة يذكر له أنه قد اشترى الضيعة المجاورة ، وأنه صارت له ضيعة نفيسة ، فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، ثم سأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدّثا ، قال عمارة : بعثتَ بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل ، وكنا إليها ها هنا أحوج . قال : فإن عندنا فضـــلا ، وبعث إليه بثلاثين ألف أخرى . [1]

ولكن خلق الوفاء النادر لم يغن عن ابن المقفع شيئا ، بل غدر به واغتيل ، فلماذا ؟ ثم إن ابن المقفع رجل أديب . ليست له أطماع سياسية يخشى منها على كيان الدولة ، كما كان يخشى على الدولة من أبى سلمة ، أو ابن هبيرة ، أو أبى مسلم الخراسانى . ومن هنا يتساءل الباحثون ـ دون جواب شاف ـ عن السبب الذى حدا بتدبير مؤامرة اغتيال هذا الأديب الكبير ، ومن هنا يحاول الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن ابن المقفع [2] أن يتلمس العلة التى دعت للفتك بهذا الرجل ، ويميل ، أو على حد تعبيره ، يزعم أن الزندقة كانت من أسباب قتل الرجل ، بل كانت السبب الذى تذرع به المنصور فى قتله » [3] ولكن الدكتور حمزة يعود فيسأل : « وإذا كان ابن المقفع قتل لزندقته ، فلماذا يقتله المنصور غدرا ،

---

(١) المرجع السابق ١٠٩ — ١١٠

(٢) المرجع السابق من ص ٢٢٧ الى ص ٢٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦

وبطريق المؤامرة ، وكان يكفى أن يتذرع المنصور بهذه التهمة الكبرى فيقتله جهراً وبعلم من الناس جميعا . ؟ » ولست أدرى كيف أصر حضرته على أن ابن المقفع قتل لزندقته مع أنه لم يجب عن السؤال الذى وضعه إلا بترجيح أن المنصور قتله صراحة ، وهو بهذا يخالف جميع المصادر التى بأيدينا .

ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين أن رسالة الصحابة [1] وحدها كانت السبب فى قتل ابن المقفع [2] لأن ابن المقفع كتب هذه الرسالة للمنصور ، ووضع نفسه فيها موضع الناقد وصاغ هذا النقد فى صورة بلاغية رائعة فيها إجلال واحترام ودعاء ، ولكن النقد لم يَخْفَ على المنصور ، فحنق عليه ؛ إذ أن الحاكم المستبد يكره النصح ويضيق بالنقد مهما كان رقيقاً مهذباً ، ويضيف أستاذنا الدكتور طه حسين أن هذه الرسالة كانت برنامج ثورة .

وأيا ما كانت الأسباب فإن السبب المباشر ، وطريقة تنفيذ المؤامرة ، يوضحها لنا كل من الجهشيارى ، وابن خلكان وهاك خلاصة ذلك :

مر بنا أن ابن المقفع هو الذى أمْلى كتاب الأمان الذى أمضـــاه المنصور لعبدالله بن على ، وقد سبق أن أوردنا نصه ، وظهر منه أن ابن المقفع وكّده توكيداً عظيما استجابة لرأى عيسى بن على وأخيه سليمان اللذين كانا يعرفان خلق الغدر فى ابن أخيهما المنصور ، فأرادا أن يحتاطا لأخيهما عبدالله ابن على ، وألا يدعا للمنصور فرصة للحنث بعهده ، فطلبا من ابن المقفع

---

(١) اقرأها بمجموعة رسائل العرب التى جمعها الاستاذ أحمد زكى صفوت ج ٣ من ص ٢٥ الى ص ٤٧

(٢) انظر « من حديث الشعر والنثر » ص ٤٧

مزيدا من الاحتراس والحيطة . وقد استجاب لهما ابن المقفع ، ولكنه ـ والحق يقال ـ ارتكب الشطط فى ذلك وأسف ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل « وإنْ أنا نلت عبد الله بن على بمكروه . . . . فأنا نفىٌ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة » [أى ولد سفاح وزنى] فهذا ومثله مما ورد فى الكتاب ، أثار حنق المنصور على الكاتب ، فسأل : منْ كتب هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع ، كاتب عيسى ابن على . فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؟ (١) .

لقد حكم المنصور بالإعدام على ابن المقفع بهذه الجملة ، فقد كان حوله أعوان سوء ، يعرفون كيف تحقق أمثال هذه الرغبات ، وكان ضمن حاشية الخليفة مولاه أبو الخصيب مرزوق بن روقاء الذى كان يعرف أن سفيان بن معاوية والى البصرة يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة (٢) ويتمنى لو تتاح له الفرصة لينتقم منه على استخفافه به واحتقاره له ، فكتب أبو الخصيب إلى والى البصرة ـ وكان ابن المقفع يقيم بها مع عيسى بن على ـ يخبره برغبة الخليفة ، فسُرَّ سفيان والى البصرة بهذا التفويض الذى يشفى غلته ، وظل ينتهز الفرصة لينفذ ما طلب منه ، وما يتوق له .

وحدث بعد ذلك أن عيسى بن على قال يوماً لابن المقفع : صر إلى سفيان فقل له كذا وكذا ؛ فقال له : وجِّه معى إبراهيم بن جبلة فأنى لا آمن سفيان . فقال : كلا ، انطلق إليه ولا تخف ، فإنه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك منى ، فقال ابن المقفع لابراهيم بن جبلة : انطلق بنا

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٤

(٢) انظر صوراً منها فى الجهشيارى ١٠٤ ـ ١٠٥ ، وابن خلكان ١ : ١٥٠

إلى سفيان تبلّغه رسالة الأمير . فمضيا ، فجلسا على باب الديوان ، وبعثا إلى سفيان يطلبان الإذن بالدخول عليه ، فجاء الآذن وأذن لإبراهيم ابن جبلة فدخل ، ثم خرج فأذن لابن المقفع ، فلما دخل عدل به إلى مقصورة أخرى فيها شيرويه الملاديسى ، وعتّاب المحمدى ، فأخذاه فشداه كتافاً ، فقال إبراهيم لسفيان : ايذن لابن المقفع . فقال سفيان للآذن : إيذن له ، فخرج الآذن ثم رجع فقال : قد انصرف ؛ فقال سفيان لإبراهيم : هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله ، ما أشك فى أنه قد غضب . ثم قام سفيان وقال لإبراهيم : لا تبرح حتى أعود لك ؛ ودخل المقصورة التى فيها ابن المقفع . فقال له لما رآه : وقعتَ والله . فقال ابن المقفع : أنشُدُك الله . فقال سفيان : أمى مُغْتلة كما كنت تقول ، إن لم أقتلك قِتْلةً لم يقتل بها أحد قط . وأمر بتنّور فسُجر ، ثم أمر فقُطعت أعضاؤه عضواً عضواً وألقى فى التنور ، وكان ابن المقفع وهو يُعذّب ينشد قبل أن تزهق روحه البيتين اللذين سبق إيرادهما :

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

ولما فرغ سفيان من ابن المقفع ، رجع إلى إبراهيم فحدّثه ساعة ، ثم خرج إبراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع : ما فعل مولاى ؟ قال : ما رأيته ؛ قال . بلى قد دخل بعدك ؛ فقال : ما رأيته ؛ ورام الرجوع إلى سفيان فحجب ، وانصرف ، وانصرف معه غلام ابن المقفع ، وهو يبكى ويصيح : قَتَلَ سفيانُ مولاى [1] .

---

(١) الوزراء والكتاب ١٠٥ ـ ١٠٧

ولما عرف عيسى بن على وسليمان أخوه أن ابن المقفع دخل دار سفيان سليما ولم يخرج منها ، ثارا وتوعدا ، وخاصما سفيان إلى المنصور ، وأحضراه اليه مقيداً ، وحضر الشهود الذين شاهدوا ابنَ المقفع وقد دخل دار سفيان ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم المنصور : أنا أنظر فى هذا الأمر، ثم قال لهم : أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت ، وأشار إلى باب خلفه ، وخاطبكم : ما ترونى صانعاً بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أنه قُتل برضا المنصور . (١)

الهادى :

ننتقل إلى مؤامرة عجيبة حدثت أيضاً فى قصور الخلفاء العباسيين ، وإن النفس لتوشك أن تنتفض عند ذكرها والتفكير فيها ؛ تلك هى إعداد الخيزران مؤامرة لقتل ابنها الهادى ، وأسارع فأقرر أن الانسان يحس أن الطبيعة الأنسانية تأبى أن ترتكب أمٌّ هذا المنكر الجسيم مع ابنها ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين المحدثين فى التسليم بهذه المؤامرة ، ولهم الحق فى التردد ، غير أن الطبيعة الانسانية أيضاً تقرر أن نفس الإنسان أعز عليه من كل نفس ، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع .

فإذا جاز مايذكره بعض المؤرخين من أن الهادى حاول أن يسمّ أمه، كان فى ذلك مايرجح إمكان تدبير الخيزران مؤامرة للفتك بالهادى ، دفاعاً عن نفسها ، ورغبة فى استعادة نفوذها الذى فقدته بسبب صرامة

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٥٠

الهادى وشراسته ، ولنسق فيما يلى من المعلومات التاريخية مايلقى الضوء على هذه التيارات الخفية ، وهذه الدسائس التى وُجدَت فى قصر الخلافة فى ذلك العهد مرعى خصباً وجواً صالحا .

كان المهدى سمحاً ، رضىّ الخلق ، صفىّ النفس ، قطيع الخنا ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء [1] وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية ، تحب النفوذ ، وتهوى السلطان ، وقد وجدت فى أخلاق المهدى ماوافق طبيعتها وشجعها على التمادى ، فكانت تأمر وتنهى ، وتشفع وتبرم وتنقُض . [2] ويقول : Sayed Ameer Ali [3] إن المهدى جعل لها السيادة عليه وعلى من فى بلاطه ، فازدحم قصرها بالأمراء والعظماء والطامعين فى المناصب وطلاب الحاجات .

ولما مات المهدى ، وتولى الهادى الخلافة ظنت المرأة أن سلطانها سيتسع ، ونفوذها سيمتد ، وتخيلت أن الابن سيكون أكثر استجابة لها من الزوج ، وحسبت أنها ستتغلب على ذلك الشاب الحدث ، وتطويه تحت جناحها أكثر مما فعلت مع أبيه ؛ ولكن الهادى كان يختلف اختلافا بينا عن المهدى ؛ لقد كان كما يقول الجاحظ [4] : « شكس الأخلاق ، صعب المرام قليل الاغضاء ، سيء الظن » . وكانت الغيرة من أبرز صفاته ، فقد حكى ابن الأثير [5] : ان المهدى مات والهادى بجرجان يحارب اهل طبرستان ،

---

(١) الجاحظ : التاج : ص ٣٥

(٢) الفخرى ص ١٦٧

(٣) A Short History of the Saracens p. 231.

(٤) التاج ص ٣٥

(٥) الكامل فى التاريخ ٦ : ٢٩

فشغب جند بغداد يطالبون بأرزاقهم ، فاستدعت الخيزران يحي البرمكي والربيع بن يونس لتستشيرهما فيما يمكن تدبيره حتى يصل الخليفة الجديد ، فأما الربيع فدخل عليها ، واما يحي فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي ، وعمل على جمع المال وتهدئة الجند ، فلما علم الهادي بذلك كتب إلى الربيع يتهدده بالقتل ، وكتب إلى يحي يشكره ، ولولا حيلة اشار بها يحي على الربيع ، لكان من المحتمل ان يوقع الهادي بالربيع .

ولكن اولئك الذين مُنحوا حساسية مرهفة كحساسية يحي بن خالد كانوا قليلين ، ومن اجل هذا بقي باب الخيزران كما كان من قبل ملجأ الوزراء ، والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، وطلاب الحاجات ، وكانت الخيزران تستبد بالأمور دون الهادي ، وتسلك به مسلك المهدي ، حتى مضت اربعة اشهر كان الناس ينثالون إلى بابها خلالها ، وكانت المواكب تغدو وتروح إليها (١) .

واحتمل الهادي هذه الفترة بدافع البر بأمّه ، ولكن المرأة تمادت ، واوشكت ان تنكر وجوده ، وكانت تبرم الأمر ، وتقدمه إليه ليوقعه ويمضيه فتيقظت شخصيته ، وتحركت نفسه ، ووجد ألاّ مناص من وقف هذا التيار الجارف ، ووضع حد لهذا العدوان الصارخ على مسئولياته وواجباته .

وبدأ الهادي مقاومته بتأجيل النظر في طلباتها ، وعدم الاسراع في تلبية رغباتها ؛ سألته مرة ان يولي خاله الغطريف اليمن ؛ فوعدها بذلك ؛ ثم كتبت له يوماً رقعة تتنجز فيها امره ؛ فردّ إليها رسولها يقول لها : خيّريه بين اليمن وطلاق ابنته [زوجة الهادي] ، او المقام عليها دون ان يولىّ اليمن .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٣

فأيهما اختار فعلتُه ، فأخطأ الرسول فى فهم كلام الهادى ، وعاد للخيزران ليقول لها : يقول لك الخليفة : اختارى له ، فظنت انه يخيرها بين ولايات متعددة فاختارت ولاية اليمن ، واعادت الرسول بذلك ، فقال للهادى : اختارت ولاية اليمن ، فغضب الهادى ، وطلق ابنة خاله ، ولما وصل خبر الطلاق بيت الهادى ، ارتفع الصياح منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : من دار بنت خالك ، وخُبِّر ان الرسول اخطأ فى تبليغ الرسالة (١) .

ثم تقدمت الخيزران بمطلب جديد ، واخطأها فى هذه المرة التوفيق ايضاً ، وبلغ طغيانها القمة ، فقد بدا للهادى : اولا ـ انها لا ترجو ولكنها تأمر ، وتضمن النفاذ سلفا لصاحب الحاجة ، وثانيا ـ انها لا تكتفى بالتوسط فى الأمور العادية ، ولكنها تبرم الرأى ايضاً فى عظائم الأمور ، وثالثاً ـ ظهر للهادى أن صلتها ليست مقصورة على اخيها الغطريف وامثاله من محارمها ، بل تمتد إلى غيرهم من القادة والرؤساء ؛ فتحركت فيه النخوة والغيرة ، وأصر على ان يثبت شخصيته ، ويسيطر وحدة على زمام الأمر ، فبدأت العاصفة ، ولنسمع إلى المسعودى ، وابن الأثير ينقلان لنا هذه الرواية :

كلمت الخيزران ابنها الهادى ذات يوم فى امر ، فلم يجد إلى إجابتها سبيلا ، فاعتل عليها بعلة ، فقالت : لابد من إجابتى ؛ قال : لا افعل ؛ قالت : فإنى قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك ؛ فغضب الهادى ، وقال : ويلٌ لابن الفاعلة ، قد علمت انه صاحبها ، لا قضيتها لك ؛ قالت : إذاً والله لا اسألك حاجة ابداً ؛ قال : إذاً والله لا ابالى ، وقامت مغضَبة . فقال :

---

(١) الاغانى ١٣ : ١٢ ـ ١٣ والطبرى ١٠ : ٤٣

مكانك ، فاستوعي كلامي ، والله - وإلا كنت نفياً من قرابتي من رسول الله (ص) - لئن بلغني أنه وقف ببابك احد من قوادي وخاصتي ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ؛ ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ اما لك منزل يشغلك ؟ او مصحف يذكّرك ؟ او بيت يصونك ؟ إياك وإياك . لاتفتحي بابك لمسلم ولا ذمي . فانصرفت وهي لا تعقل ماتطأ ، فلم تنطق بحلو ولا مر بعدها . ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير ؛ أنا وأمي أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ؛ قال : فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه ، فيقال : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ؛ قال : فما بالكم تأتون امي فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها [1].

وهكذا تأزمت الأمور بين الخليفة وامه ، واحست الخيزران بفراغ كبير بعد ان جفاها الناس ، ولم يعد احد يستطيع ان يسعى إليها ، فنقمت على ابنها ذلك وكرهته ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل جدّت امور اخرى تفاقم الخلاف بسببها ، وعظمت الهوة ؛ فالهادي يصر على خلع الرشيد ، والرشيد هو الأمل الباقي للخيزران ، لأنه الابن الوديع السمح ، الذي يُرجى ان يكون صورة من ابيه ، تستعيد الخيزران في ظله نفوذها ومكانتها الذابلة [2] ، وامتلأ القصر في ظل هذه الحركات بالجواسيس ؛ فللهادي عيون على امه من خدمها ، وللخيزران على ابنها عيون من خدمه ، وتعرف الخيزران من عيونها ان الهادي يتسقط اخبارها ، ويحوطها بحصار قوي ، وتقع فريسة للانفعالات المختلفة والعواطف المتباينة ، فمرة تثور نفسها ،

---

(١) المسعودي . مروج الذهب ٢ : ٢٥٧ — ٢٥٨ وابن الاثير ٦ : ٣٣ — ٣٤

(٢) الفخري ص ١٦٨

ويتجلى خوفها على الرشيد فتتمنى لو تنتقم من الهادى وتزيله من الوجود ، ولكن كيف ، وهو ابنها وقطعة من كبدها ، فهل تقوى على ذلك ؟

ويعرف الهادى ان امه تؤلب الرشيد عليه ، وتحثه على الا يخلع نفسه ، فيتزايد حنقه عليها . ويصر على ان يفعل شيئاً ، فيرسل لها طعاماً مسموماً ، ولكنها تختبر هذا الطعام قبل ان تتناوله فتلقى بعضاً منه إلى كلب ، فيترنح ، ويهوى لساعته ، ويسألها الهادى عن الطعام ، فتقول : كان طعاماً طيباً ؛ ولكنه يدرك انها لم تأكل منه فيقول : ما اكلتِ منه ، ولو فعلتِ لاسترحتُ منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟ (١) .

وتصبح المسألة بالنسبة للخيزران دفاعا عن النفس ، ويتحقق لها أن الهادى عاق ، وأن من الممكن أن تضع مكانه ابناً آخر عرف بالبر والرحمة والحنان . فيقال : إنها أوعزت إلى بعض الجوارى فقتلنه بالجلوس على وجهه وهو مريض ، وظللن يكتمن أنفاسه حتى زهقت روحه ، فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلمه بموته (٢) .

الفضل بن سهل :

نحن الآن أمام مؤامرة دبرها المأمون ، ومن الحق أن نقرر أن المأمون كان لا يحب سفك الدماء ، وكان يكره الغدر ، ويميل إلى العفو والسماح ، وأنه إن كان قد لجأ إلى التآمر للتخلص من بعض الأفراد ، فإن ظروفاً قاهرة كانت تدفعه ، ومشكلات عظيمة كانت تؤثر فيه ، فهو لم

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٤

(٢) المرجع السابق ، وابن خلدون ٣ : ٢١٧ ، والفخرى ص ١٦٨

يرتكب هذا العمل ليشفى به غلة ، أو يرضى نفساً متعطشة للدم ، لا ، ولكن المأمون ارتكبه ليسكن به فتنة ، ويهدىء ثورة ، فلم يكن القتل هنا للتشفى والانتقام ، وإنما كان للضرورة الملحة التى تحتمه .

وظاهرة أخرى بدت فى أعمال الفتك التى أوعز بها المأمون ، فان فتكه كان مقصوراً على من يخشى أذاه لايتعداه إلى أهله أو إلى مصادرة أمواله .

وظاهرة ثالثة كانت تلازم المأمون فى هذا الشأن كذلك ، وهى أنه كان يبدو وكأن لايدله فيما حدث ، ولاتدبير منه ، فهو لايجاهر به بعد فعله ، ثم كان يبذل أقصى الجهد ليخفف وقع المصاب عن أهل ضحيته وذويه .

فالفرق كبير جداً بين ضحايا المأمون ، وضحايا المنصور ، لقد كان المأمون يرعى القيم الأخلاقية ، ويحترم النفس البشرية ، أما المنصور فكثيرا ما أهدر هذه القيم ، وازدرى تلك النفس ، وقد كان من الممكن أن ندافع عن المنصور لو أنه ارتكب هـــذه الأحداث قاصداً تثبيت الدولة ، أو حراستها ، ولكنه قتل عبد الله بن على بعد أن تقلمت أظفاره وهدّمه السجن وقتل ابن المقفع وما كان يحمل فى يده سيفاً يزعج ، ولا فى رأسه ثورة تخيف ، وإنما كان بين بنانه قلم يسطر الحكمة ، وفى عقله نور يهدى السبيل ؛ فاستحق المنصور بهذا لوم التاريخ ، والتمس العذر للمأمون فيما دبر من مؤامرات .

ولنعد إذاً إلى الكلام عن الفضل بن سهل :

من الممكن أن نقرر بادىء ذى بدء أن دولة المأمون منحة قدمها له الفضل بن سهل ، وأنه لولا الفضل لما كانت دولة المأمون ، ولغُلب هذا على أمره ؛ وقد كان الفضل بن سهل ـ منذ عهد الرشيد ـ يكتب للمأمون ،

ويتولى أمره كله ، ومنذ ذلك الحين أخذ الفضل يرى ويدبر ليضمن للمأمون حقه ، وليحميه من أن يطغى عليه سلطان أو يستبد به مستبد ، وأول لبنة وضعها الفضل ليشيّد عليها دولة المأمون كانت فى حياة الرشيد ، فإن خراسان لما انتقضت على الرشيد بقيادة رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وعجزت جيوش الخلافة عن ردها إلى الطاعة . رأى الرشيد أن يخرج لها بنفسه فغادر الرّقّة [وكان الرشيد انتقل إليها من بغداد (١)] واستخلف عليها ابنه القاسم ، وفى طريقه إلى خراسان مرّ ببغداد فاستخلف عليها ابنه محمدا الأمين ، وأمر المأمون بالبقاء معه ببغداد ، وهنا بدت حنكة الفضل ، فقد قال للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إنْ يحدث عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بنى هاشم ؛ فسأله المأمون إشخاصه معه ، وألح؛ فأجابه بعد امتناع . (٢)

وقد بدأ المأمون بهذا يفلت من استبداد الأمين ، وسطوته . وسار المأمون مع الرشيد فى طريقهما إلى خراسان ، غير أن العلة استفحلت على الرشيد فى أثناء رحلته ، فاضطر إلى التخلف بالطريق ، وأمر المأمون

---

(١) يعلل الرشيد انتقاله من بغداد إلى الرقة بقوله : والله إنى لاطوى مدينة ما وضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وإنها لدار مملكة بنى العباس ، مابقوا وحافظوا عليها ، ولا رأى أحد من آبائى سوءاً ولا نكبة فيها ، ولنعم الدار هى ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية . مع مافيها من المارقة ، والمتلصصة ، ومخيفى السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد (ابن الاثير . ٦ : ٦٣)

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٦ وابن الاثير ٦ : ٦٨

أن يأخذ بعض الجند ويواصل سيره إلى خراسان ففعل ، وصحب معه كاتبه ومدبر أمره الفضل بن سهل ، أما الرشيد فقد حط رحاله في طوس ، وأحس بالمرض يزداد فجدد العهد لأبنائه الثلاثة، وأوصى بما معه من مال وعتاد لابنه المأمون ، كما أوصى أن يلحق بالمأمون ما تبقى بطوس من القواد والجنود ؛ ولم يطل به المقام فلفظ أنفاسه الأخيرة بطوس ودفن بها .

وتوالت بعد ذلك أيادى الفضل بن سهل على المأمون ، ولم يدخر وسعاً في نصحه والإخلاص إليه :

عند ما حنث قواد الرشيد وجنوده بالعهد ، ورجعوا من طوس إلى بغداد ، همَّ المأمون بأن يلحقهم ببعض جيشـــه ليردهم ، ولكن الفضل ابن سهل قال له : إن فعلت ذلك لم آمن أن يقبضوا عليك ويحملوك هدية الى محمد . (١) .

ورأى الفضل أن الهوة تتسع بين الأمين والمأمون ، فأخذ يعد المأمون للأمر العظيم ، ويمهد له الطريق إلى الخلافة ؛ فحببه إلى الناس ، وحبب اليه العدالة والانصاف ، وقال له : قد قرأتَ القرآن ، وفهمتَ أمر الدين ، والرأيُ أن تجمع الفقهاء ، وتدعوهم إلى الحق والعمل به ، وإحياء السنة وأن تقعد على اللّبود ، وتواصل النظر في المظالم ، وتكرم القواد والرؤساء وأبنـــاء الملوك ، ففعل ذلك ، وحط عن خراسان ربع الخراج (٢) .

وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه ، وكانوا يقولون : ابن أختنا ،

---

(١) الجهشياري : ٢٧٧ وابن الاثير ٦ : ٧٤ .

(٢) الجهشياري ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ .

وابن عم رسول الله ، ولما رأى رافع بن الليث سيرة المأمون انقاد له ، ودخل فى طاعته سنة ١٩٤ هـ فأعطاه الأمان ، فصـــار اليه وأكرمه وخُصَّه (١) .

ولما اشتد الخلف بين الأمين والمأمون من أجل ولاية العهد خاف المأمون عاقبة ذلك فرقّ وعزم على الاجابة إلى خلع نفسه ، ومبايعة موسى بن الأمين ، فخلا به الفضل وشجعه على الامتناع وضمن له الخلافة ، وقال له : هى فى عهدتى (٢) وكان مما قاله الفضل للمأمون : إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها ايام المنصور ، فخرج عليه المقنع وهو يدعى الربوبية ، وقيل طلب بدم أبى مسلم ، فضعضع العسكر بخروجه بخراسان ، وخرج بعده يوسف البرم وهو كافر ، فتضعضعوا أيضاً له ، ثم أخبرنى أيها الأمير ، كيف رأيتَ الناس ببغداد عند ما ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً ؛ قال : فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك وبيعتك فى أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبر وأنا أضمن لك الخلافة . قال المامون : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك (٣) .

وتأزمت الأمور بين الأخوين ، ولم يعد يفض الخلافَ إلا السلاحُ ، وحينئذ تظهر مهارة الفضل بن سهل ، فقد أوعز إلى رجال من عيون خراسان أن يكتبوا لعلى بن عيسى بن ماهان واليهم السابق الذى عزله الرشيد لطغيانه وجوره ، يؤكدون له أنه إن قاد جيوش الأمين فله منهم السمع والطاعة ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٢) الفخرى ص ١٨٩ .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٤

وإن جاءهم غيره قاوموه ، فأطلع على بن عيسى الأمين على هذه الكتب ، ثم كان للفضل بن سهل عين عند الفضل بن الربيع ، فكتب ابن سهل إلى ذلك العين أن يحسن لابن الربيع إيفاد على بن عيسى ويعلل ذلك بأن علياً أعرف بمسالك البلاد وحصونها ، وله صلة ببعض رجالها . ولما تحققت أمنية ابن سهل ، وعُيّن على بن عيسى قائد الجيش الأمين ، أشاع ابن سهل بين اهل خراسان ان الطاغية فى طريقه إليهم ، وانهم إن لم يجدّوا فى قتاله استئناف فيهم تنكيله وتعذيبه ، فهرع القوم ليدافعوا عن انفسهم وحُرَمهم [1]

اما الفضل بن سهل فقد اختار خيرة القواد لمحاربة جيوش الأمين ، اختار طاهر بن الحسين ، وهَرْثَمَة بن اعين ، وهما من صناديد القادة الذين لا يشق لهم غبار ، ثم هما صاحبا كياسة وبراعة فى إدارة الحروب وحسن الصلة بالجنود ، اختارهما الفضل وزودهما بالرجال والعتاد وأرسلهما فكتب لهما النصر المؤزر ، وهزمت جيوش الأمين ، وحوصرت بغداد وسقطت ، وخر الخليفة اللاهى صريعاً ، وانتقلت الخلافة إلى المأمون [2] .

كل هذا جميل من الفضل بن سهل ، وكان المأمون أول المعترفين بأياديه وحسن تدبيره ، وما أن ظهرت للمأمون علامات نصره ، وبدأت جيوش الأمين تتراجع ، وتنهزم ، حتى أغدق المأمون على الفضل ومنّاه ، وعظم شأنه ، يحكى ابن الأثير [3] : أنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة قائدى الأمين ، أمر المأمون أن يخطب له ويخاطب

---

(١) انظر ابن الاثير ٦ : ٧٩ وابن خلدون ٣ : ٢٣٢

(٢) انظر ابن الاثير ٦ : ٧٩ـ٨١ وابن خلكان ١ : ٤١٣ والفخرى ١٨٨ ومابعدها.

(٣) الكامل فى التاريخ ٦ : ٨٥

بأمير المؤمنين ، ودعا الفضل بن سهل وعقد له على المشرق ، وجعل له عمالة ثلاثة ملايين من الدراهم ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين ، ولقبه ذا الرياستين : رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج (١) .

وجعل المأمون للفضل لقب الإمارة مع لقب الوزارة ، وهو أول وزير يجمع له اللقبان . (٢)

وكتب له توقيعاً طويلا يدل على مدى إجلاله له ، واعترافه بفضله . وهاك نصه :

أغنيتَ يا فضل بنَ سهل بمعاونتك إياى على طاعة الله ، وإقامة سلطانى ، فرأيت أن أغنيك وأحببت أن أسبق إلى الكتاب لك بخطى ، بما رأيته على نفسى ؛ وقد أقطعتك السّبب بأرض العراق ، عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ، ولما قمت به من حق الله وحق ، فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلتُ لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيُسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد مالزمتَ ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولىٌّ بقيامها ، وجعلت ذلك كله بشهادة الله ، وجعلته لك كفيلا على عهدى ، وكتبت بخطى سنة ١٧٦ هـ . (٣)

وبلغ من إكرام المأمون له ، وتقريبه إليه أن عرض عليه أن يزوجه

---

(١) انظر كذلك الجهشيارى ٣٠٥ — ٣٠٦

(٢) الجهشيارى ص ٣٠٦

(٣) انظر الجهشيارى ص ٣٠٦

إحدى بناته على الرغم من عادة استهجان تزويج بنات الخلفاء من غير ذوى قرباهم ، وقد جهد المأمون فى إقناع الفضل ، ولكن الفضل استكثر هذا التكريم على نفسه . فشكر ، واعتذر . (١)

وسارت الأمور على هذا النحو من الحب والتعاطف بين الاثنين ، حتى قتل الأمين وانتهت الخلافة إلى المأمون ، وهنا يبدأ الانحراف ، ولكنه كان فى هذه المرة من جانب الوزير الذى أخذه الغرور بعد ذلك ، وكأنما خطر له أن يجعل هذا الملك مُلكا له ، وأن يستعيد لخراسان سلطانها وسيادتها ، فمال إلى أن يجعل للمأمون الاسم ولنفسه القول والعمل ، وسلك طريقاً وعراً ، كان هو فاتحه ، وكان ضحيته .

وأول ما عنى به الفضل ان يمد سلطانه إلى بغداد عاصمة الدولة ، فان خضوعها له معناه سيطرته على شئون الخلافة كلها ، ولكن كيف له أن يستبد ببغداد وفيها البطلان الفاتحان طاهر وهَرثَمة ، ومن أجل ذلك نجده يسارع فيسعى بالإيقاع بطاهر لدى المأمون ، فإنه ما إن قَتَل طاهرٌ الأمينَ حتى دخل الفضل يقول للمأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سلَّ علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيراً ، فبعث به عقيراً (٢) .

وواصل الفضل جهده لإخضاع بغداد له ، ولإبعاد القائدين العظيمين عن العراق ، فأوعز إلى المأمون أن يولى الحسن بن سهل أخا الفضل كور الجبال والعراق والحجاز واليمن ، فاستجاب المأمون وكتب إلى طاهر وهرثمة أن يسلما ما فى أيديهما إلى الحسن . (٣)

---

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٧

(٢) الجهشيارى ص ٣٠٤

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠١

ولم يكتف الفضل بحرمان طاهر وهرثمة من الاستمتاع بثمار كفاحهما الطويل ، بل كتب إليهما ليشتبك كل منهما فى حرب جديدة ، فوجّه طاهراً لمحاربة نصر بن سيار بن شبث [1] ووجه هرثمة لمحاربة أبى السرايا ، واستمر يدس عليهما لدى المأمون . فقال عن طاهر : إنه غير جاد فى محاربة نصر ، وقال عن هرثمة : إنه هو الذى أوعز لأبى السرايا فى التمرد ، وكان أبو السرايا من أتباع هرثمة ثم خرج عليه مع بعض الجند لتأخر أجورهم ، وعلى الرغم من هذا الدس الذى قام به الفضل فإن النصر كان حليف القائدين العظيمين فى هذه المعارك الجديدة ، فقد قُتـــل أبو السرايا ، واستأمن نصر ، واستسلم للمأمون [2] .

وأدرك هرثمة ما يراد به ، وأدرك ان المأمون مغلوب على امره ، وان الأخبار تُحَرَّف عليه ، ولا تصله صحيحة ، فقرر ان يسير إلى المأمون ، فجاءته كتب الفضل فى الطريق بأن يرجع للشام ، فأبى وقال : لا ارجع حتى آتى امير المؤمنين ، وقرّر ان ينقل للمأمون ما يدبره عليه الفضل بن سهل ، وما يكتم عنه من الأخبار ، والاّ يدع المأمونَ حتى يرده إلى بغداد ليتوسط ملكه ، فعلم الفضل بذلك ، فقال للمأمون : إن هرثمة قد اثقل عليك البلاد والعباد وجاء مشاقا مخالفاً ، وانه إن اطلق كان مفسدة لغيره ، فتغير قلب المأمون على هرثمة ، فلما بلغ هذا مرو خشى ان يُكتمَ قدومه عن المأمون فأمر بالطبول فدقت لكى يسمعها الخليفة ، فسمعها وقال : ما هذا ؟ فقال الفضل : هرثمة قد اقبل يرعد ويبرق ، فراد

---

(١) هو نصر بن شبيب كما يذكره ابن خلدون (٣ : ٢٤١)

(٢) انظر ابن الأثير ٦ : ١٠١ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها

حنق المأمون عليه ، فلما قدم ادخله المأمون وصرخ فيه : وضعتَ ابا السرايا ليثور عليّ ، ومالأتَ اعدائي ؛ فرغب هرثمة ان يتكلم فلم يُقبل منه كلام ، وأمر به فضرب أنفه ، وسحب من بين يديه ، وسجن ، ثم دس الفضل اليه من قتله (١) .

وحَسّن الفضل بن سهل للمأمون أن يجعل على بن موسى الرضا ولى عهد المسلمين ، والخليفة من بعده ، فاستجاب المامون لذلك وأمر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر ، وكتب بذلك إلى الآفاق (٢) .

وقد فسرّ نعيم بن حازم هذا التصرف من الفضل بن سهل بقوله له : إنك إنما تريد ان تزيل الملك عن بنى العباس إلى ولد على ، ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسروياً . (٣)

كان لهذه الأعمال التى أتى بها الفضل ، وبخاصة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين صدى كبير فى العالم الإسلامى ، ولم يطق أهل بغداد صبراً على هذا العبث ، وخطر لكثير منهم أن يرحلوا إلى مرو ليخبروا المأمون بالحالة السيئة التى وصلت إليها الدولة ، والتى كانت نتيجة للسياسة الغاشمة التى سار عليها الفضل ، ولكن هؤلاء خافوا ان يلاقوا نفس المآل الذى لاقاه هرثمة وهو يسعى لمثل هـذا الهدف ، فاجتمع أهل بغداد ، وخلعوا المأمون ، وبايعوا ابراهيم بن المهدى بالخلافة ، ولم يتخلف احد

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١٠٧ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٥

(٢) ابن لاثير ٦ : ١١١

(٣) الجهشيارى ص ٣١٣

من بني هاشم عن مبايعته ، وبعد ان اخذ ابراهيم البيعة استطاع ان يسيطر على السواد والكوفة والمدائن وما حول ذلك [1] .

ولم يَنقل الفضل إلى المأمون شيئاً من هذا . وإنما موّه عليه وكذبه ، وكان لايَدخل على المأمون إلا من وثق الفضل فيه ، ومن ثم بقيت الأخبار بمناى عن المأمون ، وكان على الرضا ممن يدخلون على المأمون فأخبره بما الناس فيه من فتنة وقتال منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل يستر عنه من اخبار ، وأخبره أن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون مسحور ، مجنون ، وانهم قد بايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه فى هذا التبليغ ، وأن الحرب قائمة بين الحسن ابن سهل وإبراهيم . وقال للمأمون : إن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن منك ومكان بيعتك إلىّ بولاية العهد ، فقال : ومن يعلم هذا غيرك ؟ فقال : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا ؛ فسألهم عما أخبره به على الرضا ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل ألا يعرض إليهم ؛ فضمن لهم خطه به ، فأخبروه بالبيعة لإبراهيم بن المهدى ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنّى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على بن موسى منه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاء لينصحه ، فقتله الفضل ، وأضافوا للخليفة أنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ، وأعلموه أن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته مايعلمه ، فأخرج من الأمر

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ ، وابن الاثير ٦ : ١١٦ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٧

كله ، وجعل فى زاوية من الأرض بالرقة ، لا يستعان به فى شىء ، وأنه لو كان ببغداد لضبط الملك (١).

فأدرك المأمون حقيقة الأمر ، وعرف الفخ الذى نصبه له الفضل ، وأنكر عليه تمويهه الأمر وكذبه عليه ، وتحركت شخصية المأمون القوية التى تكره أن تخدع ، وتأبى أن تقنع بالاسم وتدع للغير القول والفعل ، وعزم أمره على أن يحطم ذلك السجن الذى نسقه حوله الفضل وأعوانه ، وقرر أن يرحل إلى بغداد ، ووجد من الحكمة أن يدارى أمره ، وألا يجاهر بالعداء حتى يفلت من هذا الحصار ، وبدأ المأمون رحلته فى أوائل سنة ٢٠٢ هـ تلك الرحلة التى لها شأن كبير فى التاريخ :

سار المأمون من مرو ، ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ، ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله ، وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام فى شعبان سنة ٢٠٢ هـ ثم تظاهر المأمون بالحزن العظيم ، وطلب قاتليه حتى وجدهم فقتلهم فيه ، وأرسل رءوسهم إلى الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة ، ثم استأنف الركب سيره إلى طوس فحط رحاله مرة أخرى ، وفيها مات على الرضا فجأة آخر صفر سنة ٢٠٣ هـ من عنب أكله ، ويقال إن المأمون دس له السم فيه ، والإنسان يتردد فى قبول هذا الاتهام ، ولكن الظروف المحيطة ربما دفعت المأمون إلى ارتكاب مثل ذلك العمل ، وبخاصة أنه بعد موت على الرضا بادر فأرسل إلى بنى العباس وأهل بغداد

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١١٨ وابن خلدون ٣ : ٢٤٩

يعتذر من عهده إليه ويخبرهم أنه قد مات . ويدعوهم إلى الرجوع لطاعته (١) .

واستأنف الركب سيره من طوس ، وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين أن يوافيه من الرقة ، فسار إليه مع جيش عظيم ، وفى النهروان التقى المأمون وطاهر وأعيان أهل بيته والقواد ووجوه الناس الذين انفضوا من حول ابراهيم بن المهدى عند ما عرفوا أن المأمون عائد إلى بغداد ، وأن الفضل وعليا الرضا قد قضى عليهما ، وأما ابراهيم بن المهدى فإنه لما رأى ذلك توارى واختفى ؛ وسار هذا الركب العظيم إلى بغداد فدخلها فى صفر سنة ٢٠٤ هـ وقد التف الناس جميعاً حول المأمون ، وعادت إلى الخلافة سطوتها ، ولم يبق من آثار الماضى سوى لبس الخضرة الذى خلعه المأمون بعد بضعة أيام من وصوله ، استجابة إلى رجاء قواده وأهل بيته (٢) .

---

(١) كان على بن موسى من خيرة العلويين وأشرفهم ، وأنبلهم وأقلهم أطماعا ، وكان يقول : ينبغى لمن أخذ برسول الله أن يعطى به ، ولم يقل فيه أبو نواس شعرا قط ، فسأله بعض أصحابه : ما رأيت أوقح منك ؛ ما تركت فخرا ولا طردا ولا معنى إلا قلت فيه شيئا ، وهذا على بن موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئا : فقال أبو نواس : والله ماتركت ذلك إلا أعظاماًله : وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله ، ونظم أبونواس هذه المحادثة فى قوله :

قيل لى: أنت أحسن الناس طرا ... فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر فى يدى مجتنيه
فعلا ما تركت مدح بن موسى ؟ ... والخصال التى تجمعن فيه ؟
قلت : لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل خادما لأبيه

(ابن خلكان ١ : ٣٢١ ـ ٣٢٢)

(٢) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وما بعدها وابن خلدون ٣ : ٢٤٩

لعل القارىء بعد هذا الشرح يوافقني على أنه من الممكن أن نلتمس العذر للمأمون فيما دبر من مؤامرات .

ويجدر بنا أن نذكر أن المأمون بذل جهده في تخفيف وقع المصاب على أهل الفضل ؛ فقد روى أنه دخل على أم الفضل فوجدها تبكي ، فقال لها : أنا ابنك مكانه يا أماه فدعي البكاء ؛ فقالت : إن ابنا ترك لي ابنا مثلك لجدير أن يبكى عليه [1] .

ولم يكتف المأمون بهذا ، بل استوزر الحسن بن سهل بعد أخيه ، ومال إليه وتزوج ابنته بوران [2] .

وأما بالنسبة لعلي الرضا فإن المأمون زوج ابنته الأخرى من ابن علي الرضا وظل يغدق على العلويين ويحسن إليهم وعلى شيعتهم ، وكان عهده لهم عهد يسر ورخاء ، وقد مر الحديث عن ذلك .

---

(١) ذيل الأمالي ص ٨٦

(٢) الفخري ص ١٩٧